الفصل الثامن والعشرون

رحيلٌ إلى الأبد

انتهت المحاضرة الأولى ولم ينتهِ ما بدأ داخل نفس ضياء ورفيقاتها منذ الأمس، الحزن والخوف ظل على وجوههن منذ لحظة استدعائهن لمكتب العمادة، ولما خرج الأستاذ من القاعة أسرع بقية الفتيات نحوهن وتحلقن حولهن، وسألوهن عما حدث، قالت ضياء بحزن:

-للأسف الاتهام واقعٌ علينا بحجة أن أحداً لم يدخل المعمل أو يستخدمه غيرنا في ذلك الوقت، وسندفع غرامة كبير جزاء ما حدث، سحر هي من أفلتت الشعلة؛ لكن الأمر لم يكن بيدها، كيف انسكبت تلك المادة على الأرض؟ نحن لم نفعل ذلك، أخشى أن أحداً قد فعلها عامداً لنقع في هذه المشكلة.

هز صفاء يديها بغضب وقالت:

-لنقع في المشكلة؟! من عديم الشعور هذا؟ كدنا نهلك.

ردت سوسن بغضب مماثل:

-صاحب الجوال المحترق، لا شك في أنه هو.

قالت أحد الفتيات في دهشة:

-جوال!!

قالت ضياء في ضيق:

-نعم، عثروا في المعمل على جوال وللأسف احترق، ليته فقط ظل سليماً لنعرف من صاحبه، النيران التهمت معظم أدوات المعمل.

ردت عليها ندى في استياء وعبرة خوف تخنق كلماتها:

-آمل فقط أن يصدقوا أقوالنا وأن ذلك الهاتف ليس لإحدانا.

في تلك اللحظة، دلف طارق إلى القاعة واقترب قليلاً من جمعتهن وهو يقول:

- ضياء، دقائق من وقتك إذا سمحتِ.

استغربت نداءه لها وهو من يتجنبها منذ عودته، كما أنها علمت أثناء استجواب العميد لهن أنه مُنح إجازة بسبب إصابته، نهضت من مكانها واقتربت منه، وهي تقول:

- كيف هي إصابتك الآن؟ ألم تُمنح إجازة؟

- نعم، الحمد لله أنا بخير، هناك أمر دفعني للحضور.

ابتسمت وهي تقول:

-أعتقد بأنها فرصتي لأشكرك على مساعدتك لي يوم أمس، كنت أود فعل هذا؛ لكن الوضع كان سيئاً، شكراً جزيلاً لك.

ارتبك حين شكرته مبتسمة، تلك الابتسامة التي أربكته أول مرة وقرعت باب قلبه لتدلف إليه على عجل بعدها، صمت واجماً للحظات مدارياً ارتباكه، ثم قال بحزم:

-لم أقم إلا بما يتوجب علي فعله، ثم لِم ساعدتني أنا أيضاً يا ضياء مع أني أسأتُ إليكِ، جرحتك وأهنتك؟ لم أفهم لِمَ؟!

أجابته بحزم:

-لم يكن يهمني ما كان بيننا، لم تكن تهمني نظرتك إليّ ولا رأيك فيّ وفيما أفعله، إن كان هناك شخص يحتاج للمساعدة حتى لو أساء إليَّ وأستطيع فعل ذلك فلن أتردد.

ذهل لقولها، ألهذا السبب ساعدته في ذلك اليوم؟! لم تكن تهتم لشيء سوى مساعدة الآخرين رغم كل إساءاتهم، أسبل جفنيه قليلاً وتمتم في نفسه:

-كان يجب علي أن أدرك ذلك؟ يلزمني الكثير ليصل مستوى تفكيري إلى مستوى تفكيرك.

قطع تفكيره حين سمعها وهي تقول:

- أخبرني الآن، ما الذي تريده يا طارق؟

بدا التردد يخالج أعماقه فيما يود قوله، إلا أنه لم يظهر ذلك، فقال بعد أن استجمع شجاعته:

- في الواقع... كنتُ أود الاعتذار منك عن كل ما بدر مني تجاهك منذ بداية السنة.

ذهلت لقوله، بينما تابع قائلاً:

- أنتِ أكثر شخصٍ أخطأتُ في حقه يا ضياء، آذيتك قولاً و فعلا ولا أجد أن كلمة (أعتذر) كافية لإصلاح خطأي.

- وأنت من أنقذني وساعدني.

قال في ألم وهو يسبل جفنيه:

-ومع ذلك...

حاولت إبعاد ما بدا عليه وهي تقول:

- لا تقلق، أنا أقبل اعتذارك وأتمنى لك التوفيق وأن تتغير نحو الأفضل.

فابتسم وقال:

-كما أني أود أن أشكرك.

قالت في استغراب:

-تشكرني؟! على ماذا؟

ثم قالت مستدركة وقد تذكرت أمراً:

- إن كنت تقصد مساعدتي لك في أثناء الحريق فلا داعي للشكر؛ بل أنا مدينة لك بإنقاذك لحياتي.

هز رأسه نافياً وهو يقول:

- لا، ليس هذا؛ بل لأشياء جعلتني أبصرها يا ضياء، أنا لم أقدم لك إلا الألم بمقابله غرستِ في نفسي أشياء فقدتُ معانيها وتركتِ بصمة في أعماقي من الصعب أن تزال.

ارتبكت في خجل لكلماته ولمحت في عينيه مرة أخرى نظرات تقدير وإعجاب الكبيرين، فأبعدت بصرها عنه وهي تقول:

-لا تبالغ، لستُ كهذا النوع من البشر.

ثم نظرت إليه، وقالت وهي تهم بالانصراف:

-اسمح لي الآن فلدينا مشكلة يجب أن نحلها قبل أن نفصل من امتحانات النهائية.

- لن تحدث أية مشكلة نحوكن.

بدت الحيرة على وجهها، فسألت:

-كيف ذلك؟

-لا عليكِ ولا تشغلي بالك، ما يهمني هو أنك قبلتِ اعتذاري، فأنا لا أعرف ماذا ينتظرني.

ازدادت حيرة من أقواله فعادت تسأله:

-ماذا تعني؟

قال في حزم:

- رجائي لكِ يا ضياء إذا سمعتِ أي شيء ما قد يزعجك عني، أن تثقي بأن طارق الذي آذاك يوماً قد رحل إلى الأبد.

وانصرف دون زيادة كلمة وغير منتظر لشيء، تاركاً إياها في بحر الحيرة التي لم تطغَ عليها وحدها؛ بل بمكتب العمادة أيضاً.

فحين خرج منه بعد أن روى للعميد والأستاذ قاسم تفاصيل ما فعل مع رفاقه بالمعمل، قال قاسم بحزم:

-إني أيضاً أتحمل المسؤولية مثل طارق ورفاقه.

رد العميد في انفعال:

-ما بك يا قاسم؟ أنت لا ذنب لك، أتريد أن تزيد حيرتي؟!

-لا سيدي، وإنما سرني من طارق اعترافه بما قاموا به، لكن الحقيقة هي أن المسؤولية لا تقع على عاتقهم وحدهم، بل علي أيضاً، لِم أبرئ ساحتي؟ لولا إهمالي لما استغفلني الشباب.

- لقد خدعوك.

فقال قاسم بحزم:

-نعم؛ لكنه ليس مبرراً، لو أني انتبهت لإغلاق المختبر لما حدث ما حدث.

-لقد استغلوا إصابته السابقة لتشتيت انتباهك، ولو أن الحمض لم ينسكب على الأرض لما حدث أيضاً ما حدث.

- ولو أن الفتيات انتبهن لوجوده من البداية لما حدث ذلك أيضا؛ لكنهن لم يميزن وجوده لانعدام لونه ورغبتهن في إنجاز العمل بسرعة، سيدي رغم أننا جميعاً لم نقصد حدوث ما حدث إلا أن هذا لن يعفينا من تحمل المسؤولية.

تنهد العميد في عمق وهو يفكر، وران صمت قصير عليهما حتى قاطعه قاسم قائلاً:

-سيادة العميد، إهمال الفتيات كان من الممكن أن يبعدني عن سبب الحريق، لكن بعد ما سمعنا أعتقد بأن القضية قد تغيرت الآن، ليس على الفتيات لوم فيما حدث.

- أظن هذا أيضاً.

- وما فعله الشباب بمحاليل المختبر عبث لابد أن يعاقبوا عليه مع أنهم لم يتعمدوا افتعال الحريق؛ لكن ما أريد قوله هو أن تأخذ في عين الاعتبار أن طارق اعترف بخطأه وخاطر بحياته لأجل إنقاذ الفتيات ومساعدتنا في إخماد الحريق ولم يتبقَ على موعد انطلاق الامتحانات الشهرية إلا أيام.

هز رأسه مفكرا وهو يستمع لحديثه، ثم قال:

- سأقرر عقوبتهم وأجتمع بمشرفهم الدكتور سامي وأستدعي أولياء أمورهم وننهي هذا الأمر اليوم.

ثم أضاف مبتسماً:

-وعقوبتك كذلك.

ضحك من قوله ، فقال وهو يهز رأسه:

-كما تريد سيدي.

في المساء، دلف عبد الكريم إلى منزله غاضباً، أرعب بولوجه غير المعتاد زوجته وابنته اللتان كانتا جالستين بالصالة، ثم سأل زوجته بعصبية:

-أين طارق؟

ردت بارتباك:

-خرج من البيت للاستجمام قليلاً وسيعود بعد لحظات، ما الأمر؟

حرق أسنانه في غضب شديد، وهو يصرخ:

- ما الأمر؟! ابنك المدلل يا سيدة تسبب مع رفاقه بإحراق معمل الكلية وكاد يودي بحياة زميلاته.

شهقت في خوف وقالت:

-ماذا تقول؟!

هز رأسه وهو يقول في حسرة ممتزجة بالغضب:

– لم أصدق ذلك أبداً وأنا أستمع للعميد وهو يخبرني به، روى لي سعي طارق ورفاقه لإفساد عمل ضياء وزميلاتها، نصحته بأن ينتبه لدراسته؛ لكن... ها هو يصدمني بمصيبة بعد أن أنهى امتحاناته وعاد إلى لمواصلة الدراسة، لا أدري أي سبب يدفعه ليكره ضياء كل تلك الكراهية، أشعر أن كل آمالي فيه قد خابت.

قالت في ذهول:

–طارق يكره ضياء؟!

زفر وهو يقول ضيق:

– نعم، ولكني لم أعرف سبباً لذلك، لم أتخيل أن تصل كراهيته إلى هذه الدرجة المشينة مع أني أحسست خلاف ذلك حين كان بالمستشفى، شعرت بأنه يقدرها ويحترمها؛ لكن اتضح لي عكس ظنوني.

قالت رُبا:

–ضياء فتاة طيبة وأنا أحبها.

– وأنا أحترمها لأنها مميزة وخلوقة؛ لكن لا أدري ما الذي يدور في فِكر أخيكِ.

في تلك اللحظة، دخل طارق وهو لا يزال يمشي بعكازه، فرأى الأنظار تتجه نحوه مباشرة، أدرك بأن خبر ما فعل قد وصلهم، ارتبكت نفسه ووقف مكانه مضطرباً، إلا أنه قرر المواجهة

مهما كانت النتيجة فتنهد بعمق ومنح نفسه الشجاعة ثم اقترب منهم وسلم عليهم؛ لكن عبد الكريم لم يرد عليه بل صفعه وهو يصيح في وجهه غاضباً:

-ما ذاك الذي فعلته يا طارق؟

صمت دون أن يرد، قالت عائشة وهي تمسك بذراعه محاولة تهدئته:

-عبد الكريم دعنا نستمع إليه أولاً.

ارتعبت رُبا وهي ترى والدها بكل هذا الغضب وبكت في خوف، أمرتها عائشة بمغادرة المكان وأسرعت بالمغادرة، بينما قال عبد الكريم صارخاً في وجه طارق:

-هلا أخبرتني لِم تكره ضياء ليدفعك ذلك لما فعلت يوم أمس بمعمل الكلية؟

نكس رأسه، ثم قال في ندم:

- أبي، أنا أدرك كل أخطائي، واعترفت للعميد بكل ما شيء رغم أن رفاقي رفضوا الاعتراف وتركوا صداقتي بسبب ما فعلته، أنا مقر بذلك، لم أفعل شيئاً جيداً أبداً، بالنسبة لضياء فقد كنتُ أكرهها لنفس السبب الذي لم تحبها به أمي، غريبة وقبيحة، أما الآن فقد تغير موقفي نحوها وأدركتُ خطأي تجاهها واعتذرت لها عن كل ما بدر مني من إساءة.

ذهلت عائشة وهي تستمع لكلمات ابنها، أما عبد الكريم فقد وجم للحظات وقد نسي كلياً مع عنفوان غضبه بأن العميد قد أخبره باعترافه وهرب زملائه الأربعة ومواجهته الأمر لوحده، وأيضا سعيه لإنقاذ زميلاته وهذا سبب إصابته، فجلس على الأريكة وانحنى للأمام وهو يضع يده على جبينه ليخفف من حمى الغضب:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أستغفر الله العظيم.

أسبل طارق جفنيه قليلاً ثم قال في ألم:

- آسف أبي لأني لم أقدم لك أي شيء يسرك رغم كل ما قدمته لي.

نظر إليه، وقال وهو يشير له بالجلوس قربه فجلس:

- كنتُ آمل ألا تقدم على ما فعلت أنت وإياهم.

- للأسف، أوغروا صدري ضد ضياء وأيدتهم في خطتهم وحدث ما حدث مع إننا لم نقصد حدوث الحريق.

- هل آمل أن تتغير بعد اعترافك هذا؟

-قرر أية عقوبة لي أنا مستعد لتحمل كل أخطائي.

- لقد استدعاني العميد مع آباء رفاقك الأربعة وتقرر طردكم لثلاثة أيام ودفع غرامة لإفسادكم ملكية الكلية.

تنهد بعمق وهو يقول في نفسه :

- الحمد لله بأنهم لم يفصلوني، لكن كيف سأتدارك كل ذاك الكم الهائل من المحاضرات التي فاتتني أثناء الامتحانات والعقوبة الآن؟

واستيقظ من شروده حين أمسك والده به من كتفيه، وهزه وهو يقول في قوة:

- طارق، لا يهمني كم سأخسر لأجلك، ما يهمني هو عودتك إلى جادة الصواب.

ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يتذكر قول ضياء:

(تزداد قيمة الحياة في النفس عندما نستشعر بأن هناك أناس يضحون من أجلنا)

قال في نفسه :

-كم ضحيت من أجلي يا أبي وتحملت أخطائي، بينما أنا لم أكن أسعى إلا لإرضاء نفسي.

ثم قال لوالده بحزم:

-سأبذل جهدي يا أبي ثق بذلك.

بدا السرور والاطمئنان على وجه عائشة، بينما ابتسم عبد الكريم وقال:

-هذه هي تلك النظرات التي رأيتها في ذلك اليوم.

سأله في استغراب:

-أية نظرات؟

وضع يده على صدره وهو يقول:

- أتذكر ذلك اليوم الذي فعلت فيه هكذا؟

- في المستشفى؟!

فهز رأسه وقال وعيناه تلتمعان أملاً:

- نعم، إن جعلت لنفسك هدفاً ذا قيمة تسعى لتحقيقه يا بني ستتغير للأفضل، أنا واثق منذ ذلك اليوم بأن شيئاً قد تغير في أعماقك، ولا أعرف ما هو، ولن أبحث عنه بل سأنتظرك حتى تخبرني به.

ابتسم له وهز رأسه مؤيدا قوله، وشيء آخر يتقاذف في أعماقه، كيف سيفيض بسيال حبه لإنسانة لم يمنحها إلا الألم والوجع؛ بل كيف سيستطيع نسيانها بعد أن جادت عليه بسخاء الخُلق حتى سرقت قلبه وصار ملكاً لها، كيف تضيع الأبصار وتتلاشى العقول حين تبصر القلوب وحدها وهج الأحبة وصفاء الحب، ويتغلغل المعشوق وتُفتح له الأبواب دون وعي أو إدراك، تمتم في نفسه:

- بماذا سأخبرك يا أبي؟ بحبي لضياء! هذا الأمر مستحيل التحقيق رغم أنها قبلت اعتذاري، لستُ قادراً على الوصول إليها أو حتى نسيانها، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

في اليوم التالي وبعد المحاضرة الأولى، لفت انتباه ضياء ستة طلاب يجلسون بالمدرج الأول ويتساءلون في حيرة عن تغيب محمود ورفاقه مع طارق، لم يكن لديهم عذر معلوم مثله، قررت تجاهل تلك الهمهمة والخروج من القاعة إلى أن استوقفها قول أحدهم وهو يقول لرفاقه في حدة:

-هؤلاء الخمسة لهم يد في حدوث الحريق.

فاجأهم جميعاً وأسرعت تعود لتتقدم نحوه حيث يجلس معهم وسألته قائلة:

-كيف ذلك؟

نظر إليها وقال:

-انسكب حمض على أحدهم وحدث معكن ما حدث.

ارتعبت لما سمعت، وعادت تقول سائلة في حيرة:

- لم يكن لديهم أي عمل هناك، لِم أخذوا حمضا من المعمل؟

رد في ضيق وغضب:

-لا أدري ما هو هدفهم من الأساس.

قالت ندى بغضب وهي تقترب منهم وتلحق بها بقية الطالبات:

-إذن فأحدهم صاحب ذلك الجوال، وماذا سيكون هدف هؤلاء غير الأذية والعبث.

ثم التفتت لضياء وقالت:

- ثم لا تنسي يا ضياء بأن طارق لم يضمر لك الخير يوماً، لقد بلغ به الشر هو ورفاقه مبلغاً كبيرا ليقدموا على هذا، سحر غائبة ومصابة بسببهم.

قالت سوسن بغضب مماثل:

-لن أسامحهم على ما فعلوه أبداً.

قالت صفاء:

-كان من الممكن أن تحدث أمور أسوأ من هذه.

قال الشاب :

-ولهذا السبب طردوا وحرموا من المحاضرات.

سألته صفاء قائلة:

-ولكن، متى وكيف عرفت كل ذلك؟

-بقيتُ متأخراً في الكلية بعد نهاية الدوام يوم أمس، لقد رأيت آباءهم يخرجون من مكتب العمادة وسمعتهم يتهامسون بهذا، صدمت لما سمعت وتيقنت بأن الأمر واقع لغيابهم الآن، المهم...

و التفت لضياء وبقية رفيقاتها وقال:

-ربما سيتم استدعاؤكن لأجل ذلك أيضاً.

- وهل ستبرأ ساحتنا بعد هذا؟

- أعتقد نعم، فليس أمر الحريق بأيدكن.

بدت السعادة على وجوه الفتيات، أما ضياء فقد كانت في صدمة لما سمعت والأصوات قد علت حولها تتقاذف عبارات الضيق والغضب والشتائم لما فعله طارق ورفاقه، قالت في نفسها في ضيق:

- اعتقدتُ بأنه تغير؛ لكن...

- ضياء!

بهتت وهي تسمع صوتاً ينادينها، كان صوت طارق، تلفتت حولها ولم تره، وعاد صوته يتردد في أذنيها حين قال لها:

- رجائي لكِ إذا سمعتِ أي شيء ما قد يزعجك عني أن تثقي بأن طارق الذي آذاك يوماً قد رحل إلى الأبد.. إلى الأبد.

وجمت للحظات وهي تتذكر تلك الكلمات.

أمر متوقع أن ينزعج الجميع منه ومما فعله هو ورفاقه لهذا طلب منها ذلك، لِم لم يطلب ذلك من الجميع؟ لو أراد ذلك لفعل أمامهم ولكنه رجاها هي دون غيرها، أ لأنه أخطأ في حقها؟! لقد انتهى الأمر باعتذاره، فلِم هذا الرجاء؟

لِم هي بالذات؟

تذكرت نظراته الغريبة نحوها وتغير معاملته لها منذ ذلك اليوم قبل رقوده بالمستشفى ثم مخاطرته لأجل إنقاذها من الحريق، و أخيراً، رجاؤه لها، تملكها الارتباك وخفق قلبها في سرعة، واضطربت أنفاسها حين أدركت بأنه يكن لها مكانة في نفسه دفعته لكل ذلك، مكانة تعدت مجرد الرغبة في إصلاح الخطأ؛ بل بلغت آفاق التضحية، ازداد الاضطراب في أعماقها وهي تقول في نفسها في ألم:

-ما هذا الذي تفكرين فيه يا ضياء؟ من سيفسح لفتاة قبيحة مشوهة مكانة في قلبه؟ ماذا قدمت له لينتابني هذا الشعور بـأنه...

ازدادت خفقات قلبها تسارعاً وهي تقول:

-لا أريد أن أفتح باب قلبي لأوهام جميلة ليصفعني الواقع بكوابيسه ... لِم أنا يا طارق؟ لا أريد لهذه المشاعر أن تلج قلبي وأتجرع بعدها ويلات ألم لن أجد لها مداويا، لا يا ضياء، ما تفكرين فيه مجرد خيالات لا أكثر، فلأغلق باب قلبي حتى أستطيع المضي في درب الحياة وتحمل كل صعابها.

ثم استيقظت من بحر فكرها حين سمعت أحد الشباب وهو يدخل القاعة ويقول في حدة:

-من أخبرك بأن طارق ورفاقه قد طردوا؟ لقد رأيته قبل لحظات بالمكتبة.

- ماذا تقول؟!

قالها الشاب غاضباً وانطلق خارج القاعة، نظر زملائه لبعضهم البعض في قلق وأسرعوا يلحقون به، قالت أحد الفتيات في خوف:

-ترى ماذا ينوي أن يفعل؟

فأجابتها أخرى في قلق:

-لا أدري، لنرى ما سيحدث.

تبعنهم ليشاهد الجميع زميلهم متجها بخطى مسرعة نحو المكتبة، في اللحظة التي أطل فيها طارق خارجاً منها ممسكاً عكازه بيد والأخرى تحمل كتابين، فانتبه للشاب يقترب منه وشرر الغضب يتطاير من عينيه وقبل أن يسأله عن شيء فوجئ به يلكمه ويوقعه وهو وعكازه أرضاً، وسقط الكتابين من يده، فتألم لسقوطه ولإصابته، وحين انتبه له ولملم وعيه هتف به في حدة:

-لِم فعلت هذا؟

رد وقد احتقن وجهه غضباً:

-وتمتلك الجرأة لتسأل؟ كدت تقتل زميلاتك وتعرض الجميع للخطر بسبب طيشك أنت ورفاقك الحمقى، كيف تجرؤ على القدوم إلى هنا؟

أمسك بعكازه ونهض من مكانه محتملاً ما به، وقال في غضب مماثل:

- لقد أخذت الأذن من الإدارة، هل لديك مانع؟

وكاد يهجم عليه مرة أخرى لولا أن رفاقه أمسكوا به، وارتعب الفتيات الواقفات من بعيد لما يحدث، فقال الشاب دون أن يخمد غضبه:

- ليتك لم تكن من دفعتنا أنت وشلتك العابثة، يا لك من قليل الإحساس عديم المسؤولية، ثق بأنك لن تجد مكاناً بيننا بعد الآن.

حاول رفاقه تهدئته؛ لكنه استطاع الإفلات منهم وكاد يضرب طارق لولا أنه أمسك يده بقوة وهو يقول في حدة:

-لقد فعلتُ ما في وسعي لأصلح خطأي فابتعد عن طريقي ودعني في شأني.

قال ساخراً:

-حقاً!! إذا مات أحد زملاءك، ترى كيف ستصلح خطأك؟

بهت لقوله، سيعيش لحظتها في ندم طول حياته ولن يغفر له ضميره وزر استماعه لرفاقه، فاستغل الشاب شروده وأفلت يده منه ودفعه ناحية الجدار، في تلك اللحظة أطل الأستاذ قاسم من الجهة الثانية من الممر، صاح بهما :

-ماذا تفعلان؟

توقف الشاب وتأمل قاسم وجهيهما فقط ليفهم ما جرى في لحظات، فقال:

- وإذا اعتذر عما بدر منه واعترف بخطأه، هل ستظل تلصق التهمة به إلى الأبد؟

بدا الذهول على وجوه الجميع وهم يتساءلون في أنفسهم، منذ متى اعترف طارق بخطأه؟

بينما تابع قاسم بحدة:

- لقد اعترف طارق بخطئه وبذل ما في وسعه لإنقاذ زميلاته وإخماد الحريق ولا أعتقد بأن عليكم معاملته بهذه الطريقة، كل منا قد يقع في الخطأ والطيش وليس علينا ألا ندع ذلك يخلق عداوة فيما بيننا.

بدا على الشاب عدم اقتناعه بما سمع واعتذر لطارق لأجل أستاذه وحسب، وغادر المكان مع بعض رفاقه، بينما أسرع أحدهم ليناول طارق الكتابين الذين سقطا منه، وقال له في ابتسامة:

-لن يتقبلك الجميع بسهولة بعد ما حدث؛ لذا اصبر، وأتمنى لك التوفيق.

فابتسم له وقال :

-أشكرك.

والتفت لأستاذه وشكره لمساعدته، ثم غادر الجميع المكان حين لمح ضياء واقفة مع زميلاتها اللاتي شاهدن ما حدث، طفى الحزن على وجهه وابتعد وهو يتمتم لنفسه ناكساً رأسه:

-آسف جداً يا ضياء، لقد خيبت ظنك.

لكنها ابتسمت لنفسها ابتسامة صغيرة مشوبة بالسرور والحزن لم يلاحظها، أدركت صدق نواياه بعد معرفتها بكل ما تحمله في سبيل أن يتغير سرت لذلك رغم أن الأمر لن يكون سهلاً عليه أبداً وسيجد الكثير من العوائق والألم التي ستعترض طريقه.

وبالفعل لم يكن القادم سهلاً، بمجرد انقضاء الأيام الثلاثة، حتى عاد طارق ورفاقه إلى مقاعد الدرس، وصار غالبية الطلاب يتجنبونهم، ومحمود ورفاقه قطعوا علاقتهم به نهائياً وصاروا يعادونه بكل مقامٍ يجمعهم، أصبح وحيداً منعزلاً عن الجميع لا يختلط مع أحد إلا أوقات المناقشات الجماعية والتجارب، كما أنه حرم من المشاركة من المنافسات الرياضية التي يحبها، وفي حقل التجارب كان حظه مع رفاقه الأربعة منذ بداية العام الدراسي، فكانوا هم من يقومون بالعمل دون طلب مساعدته أو إتاحة الفرصة له للمشاركة أو يضايقونه ليخفق فيها إلا إذا تواجد أحد أساتذتهم فتمنعهم مراقبته من فعل ما يريدون، قرر تجاهلهم والصبر ليمضي ما تبقى من السنة على خير.

كان يحاول أيضاً إثبات جدارته نحو التغيير بالمشاركة في مناقشة أساتذته بالقاعة والإجابة عن أسئلتهم رغم أن معظم إجاباته تكون خاطئة فيخجل من ذلك ويبتسم زملاؤه ساخرين منه، أما أساتذته فقد سروا بنشاطه رغم ذلك، حتى قال له الدكتور سامي يوماً حين استطاع الإجابة عن سؤاله:

- أول الغيث قطرة، وهذه المسألة التي أجبت عنها بشكل صحيح بداية مشجعة وآمل أن تتفوق في امتحاناتك.

سر بتشجيعه رغم أنه أكثر الأساتذة سخرية منه، كان أيضاً لا يتردد في رد طلب لأحد من زملائه ويبادر بكل ما في وسعه ليفعله.

ومشكلته الحالية التي يواجهها هي أن محاضرات كثيرة قد فاتته فتعسر عليه فهم ما تغيب عنها، حاول أن يسأل زملاءه لكن بسبب تجنب معظمهم له ونظرات اللوم والاتهام التي يمنحوها له يجد نفسه مضطراً لتجاهلهم، وحين لا يلقى قبولاً من أحد يتوجه إلى أساتذته الذين أثار باهتمامه إعجابهم.

أما ضياء، فقد رأت نفسها في طارق حين كانت في بداية السنة ونفر منها الجميع، وها هو الآن يقاتل بنفس نمط قتالها، عاد مرة أخرى ليتجنب الحديث إليها إلا بما يخص دراسة أخته بعد عودته لتولي مسؤوليتها في إرسالها إليها أو بما يخص موضوع دراستهم، ابتسمت متعجبة من تغير حاله، كيف كان بالأمس وكيف صار، وشعرت بأنه قد نال إعجابها بتغيره ذاك وقد أدركت جلياً احترامه الكبير لها.

وحين كان بالمكتبة ذات يوم جالساً يكتب إحدى الواجبات، انهمك في حل إحدى المسائل ، وأخذ يفكر عميقاً فيها وهو يحك رأسه بقوة، وحين تعسر عليه حلها بدا عليه الضيق، نهض من كرسيه ليسأل أستاذه؛ لكنه جلس بسرعة وهو يقول بعد أن تنفس الصعداء:

-نسيت أن الأستاذ غائب، ماذا سأفعل؟

وعاد مرة أخرى لها محاولاً حلها فصار يكتب مرات ليمسح مرات مثلها، فقال:

-يبدو أنه لا مفر من البحث عمن يساعدني.

-هل في إمكاني ذلك؟

نظر لصاحبة الصوت فذهل وخفق قلبه.

كانت ضياء واقفة قرب الطاولة وإلى جانبها سحر التي كانت نظرات الغضب في عينيها وهي تستند إلى عكازها، قال بتلعثم:

-لا... ضياء.... أعني .... سأكون ممتن لمساعدتك.

جلست على الكرسي المقابل وإلى جانبها جلست سحر، وطلبت منه مذكرته ناولها إياها وبدت تشرح له المسألة وهو في قمة ارتباكه، لم ينظر إليها بل ركز على صوتها وما تدونه، مع إن صوتها لا ينفذ إلى أذنيه بل إلى قلبه ليخفق مع كل كلمة، حاول مقاومة ما به وفهم ما تقوله، وسحر تراقبهما وقد ازداد ضيقها وهي تجلس إلى جانبها، فلما انتهت، قال:

-شكرا جزيلا لك.

- العفو، أنا مدينة لك بإنقاذ حياتي وأرجو منك إن احتجت شيئا في شأن الدراسة أن تخبرني سيكون من دواعي سروري مساعدتك.

- لم أكن أريدك أن تشكريني ضياء فهذا واجبي.

ثم نظر لسحر وقال:

-حمدا لله على سلامتك، يا سحر.

قالت بغضب وحدة:

-الحمد لله وكفانا الله شر الأشرار.

رد بأسف:

-أنا آسف لما أصابك.

لكنها لم تصغِ إليه بل أعرضت بوجهها وغادرت لتلحق بضياء ثم قالت لها:

-ضياء لماذا أنتِ مصرة على مساعدته؟

- لقد ذكرت السبب، وإن طلب أحد مني شيئاً سأساعده يا سحر.

-ولكنه أساء إليك.

- لقد اعتذر وأنا قبلت اعتذاره بعد كل ما قدمه لأجل أن يثبت لنا سعيه نحو التغيير.

زفرت في ضيق وهي تقول:

-لا أنكر مساعدته لنا، وأفضل الابتعاد عنه.

قالت في ابتسامة :

-لا داعي للقلق سحر.

ومضتا في طريقهما ..

أما طارق، فقد تعلق بصره بهما حتى خرجتا، شعر بالألم والاستياء لعدم تقبل معظم زملائه وزميلاته له رغم اعتذاره عما فعل واعترافه به، ثم هز رأسه وأيقن أن الاستسلام لخيبة الأمل لن يعثره سواه، تجاهل كل ما خطر بباله وهو يعود لتفكير بحبيبته.

أية لحظات قصيرة تلك مرت عليه؛ بل في كل مرة يستمع لحديثها يصغي لها بقلبه، يطرب أذناه لصوتها، صوتٌ كشذا عصفور ألهمه ليعزف على ترانيم القلب إيقاعاته التي تأخذه كلياً من أرض واقعه، إطلالتها كإطلالة ملاكٍ يخفق الشوق للقياه، فيأنس بوجودها، لحظاتٌ تمر عليه كنسمة في فصل الربيع، تلك الحبيبة القريبة منه بكيانها، البعيدة عنه بقلبها، كيف

استحكم نفوذها على سلطان قلبه المتحجر ليتفتق ربيعاً في كل مرة تزوره، ويعيش نشوة السعادة في تلك اللحظات، وما أن تغادره حتى تنبت أشواك الشوق والحنين فتوجعه بوخز الانتظار لعودتها.

احتار طويلاً، كيف يحول ذلك الربيع الأسير بين أضلاع صدره إلى ربيع يأسر العيون ويذهل الألباب؟

لو أنها تعلم شيئاً مما في نفسه لربما أشفقت عليه من آلام قلبه وصراخته التي لا يسمعها أحدٌ سواه، لم يجد بعد من يصارحه بحقيقة مشاعره نحوها، ولا من يسعى من أجله ليعرف حقيقة مشاعرها نحوه، وربما لو علم أحدهم بها في نفسه لسأله حائراً:

-لِم اخترتها هي دون غيرها؟ ألا تراها مشوهة؟

يتمتم مبتسماً:

-وهل يُسأل العاشق لِم اختار حبيبه؟

القلب حين يبصر يرى ما لا تراه العين، وقد يحب ما لا تحبه، هي بمظهرها فتاة عادية لا يميزها عن أترابها إلا تلك الندبة التي تنفر من حولها عنها، فإذا بها تجذبه برفق إليها ليكتشف أن خلف ما خلفته مأساة الحرب جوهرة ثمينة لا تقارن بكل جواهر الأرض حوله.

وجم للحظات طويلة، لابد أن يجد طريقة يفك بها أسر قلبه العاشق ويضع للصراع المحتدم فيه نهاية، أخذ يفكر بصمت كيف سيتم له ذلك؟

*****